سـورة المنافقون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ روى البخاري عن زيد بن أرقم قال: كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول: ﴿لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ؛ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا؛ فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله، فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «إن الله قد صدقك»[1] خرجه الترمذي، قال: هذا حديث حسن صحيح، وفي الترمذي عن زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبدر الماء، وكان الأعراب يسبقونا إليه فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة، ويجعل النطع [2] عليه حتى تجيء أصحابه، قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابيا فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه، فانتزع حجرا فغاض الماء؛ فرفع الأعرابي خشبة فضرب بها رأس الأنصاري فشجه، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره، وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبي ثم قال: لا تنفقوا علي من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - يعني الأعراب - وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام؛ فقال عبد الله: إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمدا بالطعام، فليأكل هو ومن عنده، ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال زيد: وأنا ردف عمي فسمعت عبد الله بن أبي

(١) صحيح: البخاري (٤٩٠٠) في التفسير، والترمذي (٣٣١٢) في التفسير.

(٢) النطع: بساط من جلد اللسان« نطع».

فأخبرت عمي، فـانطلق فأخبر رسول الله ﷺ؛ فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد، قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني، قال: فجاء عمي إلي فقال: ما أردت إلى أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمنافقون، قال: فوقع علي من جرأتهم ما لم يقع على أحد، قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سـفر قـد خفـقت برأسي من الهم إذ أتاني رسـول الله ﷺ فـعرك أذني وضـحك في وجهي؛ فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت: ما قال شيـئا إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي؛ فقال: «أبشـر!» ثم لحقني عمر، فقلت له مثل قولي لأبي بكر، فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[1]، وسئل حذيفة بن اليمان عن المنافق، فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به، وهو اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ لأنهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه [2].

وفي الصحـيحين عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان» [3]، وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غـدر، وإذا خاصم فجر» [4]، أخبر عليه السـلام أن من جمع هذه الخصال كان منافقا، وخـبره صدق، وروي عن الحسن أنه ذكر له هذا الحديث، فقـال: إن بني يعقوب حدثوا فكذبوا، ووعـدوا فـأخلفـوا، واؤتمنوا فـخـانوا، إنما هذا القـول من النبي ﷺ على سـبـيل الإنذار للمـسلمين، والتحـذير لهم أن يعتـادوا هذه الخصـال؛ شفقـا أن تفضي بهم إلى الـنفاق [5]، وليس المعنى: أن من بدرت منه هذه الخصال من غيـر اختيار واعتياد أنه منافق، وقـد مضى في سورة التوبة القول في هذا مـستوفى والحمد لله، وقـال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا حدث صـدق وإذا وعد أنجز وإذا ائتمن وفى»، والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدث صدق، والله اعلم.

قوله تـعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ قيل: مـعنى ﴿نَشْهَدُ﴾: نحلف، فعـبر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب؛ ومنه قول قيس بن ذريح:

وأشهدُ عِنْدَ اللَّهِ أَنِّي أُحِبُّها فَهَذَا لَهَا عندي فَمَا عِنْدَهَا لِيا

ويحتمل أن يكون ذلك مـحمولا على ظاهره أنهم يشهدون أن محـمدا رسول الله ﷺ اعترافا بالإيمان ونفيا للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، كما قالوه بألسنتهم، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، أي فيما أظهروا من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم، وقال الفراء: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ بضمـائرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمـائر، وهذا يدل على أن الإيمان تصديق

(١) صحيح : الترمذي (٣٣١٣) في التفسير وهو لفظه للرواية السابقة .
(٢) صحـيح : أبو نعيم (١/ ٢٨٠) في الحليـة ، بدون صفة المنافـقين، وبنحوه وكيـع (٤٧٥) في الزهد، والهروى (١٢/ ١) في ذم الكلام ، والفريابي (٥١، ٥٤) في صفة النفاق .
(٣) صحيح : البخاري (٣٣) في الإيمان ، /ومسلم (٥٩/ ١٠٧ ـ ١٠٩) في الإيمان .
(٤) متفق عليه: البخاري (٣٤) في الإيمان ، ومسلم (٥٨/ ١٠٦) في الإيمان .
(٥) هذا تأويله هو ، والله أعلم .

القلب، وعلى أن الكلام الحقيقي كلام القلب، ومن قال شيئا واعتقد خلافه فهو كاذب، وقد مضى هذا المعنى في أول « البقرة » مستوفى (١) ،وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم وهو قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي سترة، وليس يرجع إلى قوله ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، وإنما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه، حسب ما ذكره البخاري والترمذي عن ابن أبي أنه حلف ما قال وقد قال (٢)، وقال الضحاك: يعني حلفهم بالله ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾[التوبة: ٥٦] (٣) وقيل: يعني بأيمانهم ما أخبر الرب عنهم في سورة التوبة إذ قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾[التوبة: ٧٤].

الثانية : من قال : أقسم بالله، أو أشهد بالله ،أو أعزم بالله، أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله، أو أشهدت بالله، أو أعزمت بالله، أو أحلفت بالله، فقال في ذلك كله : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ فلا خلاف أنها يمين، وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال: أقسم أو أشهد أو أعزم أو أحلف، ولم يقل: ﴿بِاللَّهِ﴾، إذا أراد ﴿بِاللَّهِ﴾،وإن لم يرد ﴿بِاللَّهِ﴾ فليس بيمين، وحكاه الكيا عن الشافعي، قال الشافعي: إذا قال: أشهد بالله ونوى اليمين كان يمينا، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لو قال: أشهد بالله لقد كان كذا كان يمينا، ولو قال أشهد لقد كان كذا دون النية كان يمينا لهذه الآية، لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾،وعند الشافعي: لا يكون ذلك يمينا وإن نوى اليمين؛ لأن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ ليس يرجع إلى قوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾ وإنما يرجع إلى ما في التوبة من قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وهو من الصدود، أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسبي وأخذ الأموال، فهو من الصد، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويفتدي بهم غيرهم، وقيل: فصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، بأن يقولوا: نحن كافرون بهم،ولو كان محمد حقا لعرف هذا منا، ولجعلنا نكالا، فبين الله أن حالهم لا يخفي عليه، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان،﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم،وأيمانهم الكاذبة وصدهم عن سبيل الله أعمالا.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر، أي: أقروا باللسان ثم كفروا بالقلب، وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا: ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم

(١) عند الآية (٨) .

(٢) صحيح : وقد سبق صحيحًا فى أول السورة .

(٣) فيه انقطاع : بين الطبري وشيخه : كما في التفسير (٢٨/ ١١٢).

عليها بالكفر ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ الإيمان ولا الخير، وقرأ زيد بن علي: «فطبع الله على قلوبهم».

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم، ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يعني عبد الله بن أبي، قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبي وسيما جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته، وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة، وقال الكلبي: المراد ابن أُبي، وجد بن قيس، ومعتب بن قشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة، وفي صحيح مسلم[1] ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال: كانوا رجالا أجمل شيء كأنهم خشب مسندة، شبههم بخشب مسندة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، وقيل: شبههم بالخشب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم ما في بطنها، وقرأ قنبل وأبو عمرو والكسائي: «خُشْبٌ» بإسكان الشين [2]، وهي قراءة البراء بن عازب واختيار أبي عبيد؛ لأن واحدتها خشبة، كما تقول: بَدنة وبُدن، وليس في اللغة فَعَلَة يجمع على فُعل، ويلزم من ثقلها أن تقول: البدن، فتقرأ: «والبدن»، وذكر اليزيدي: أنه جماع الخشباء، كقول عز وجل: ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [عبس] واحدتها حديقة غلباء، وقرأ الباقون بالتثقيل وهي رواية البزي عن ابن كثير وعياش عن أبي عمرو، وأكثر الروايات عن عاصم، واختاره أبو حاتم، كأنه جمع خشاب وخشب، نحو ثَمرة وثِمار ثُمر، وإن شئت جمعت خشبة على خُشُب كما قالوا: بدنة وبدن وبدن، وقد روي عن ابن المسيب فتح الخاء والشين في «خَشَبٌ»، قال سيبويه: خَشَبَة وخُشُب، مثل بدنة وبدن، قال: ومثله بغير هاء أسد وأسد، ووَثَن ووثن وتقرأ: «خَشَبٌ» وهو جمع الجمع، خَشبة وخشاب وخُشب، مثل ثَمرة وثِمار وثُمر. والإسناد الإمالة. تقول: أسندت الشيء، أي: أملته، و﴿ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ للتكثير؛ أي: استندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم.

قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ أي: كل أهل صيحة عليهم هم العدو. فـ ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ في موضع المفعول الثاني على أن الكلام لا ضمير فيه، يصفهم بالجبن والخور، قال مقاتل والسدي: أي: إذا نادى مناد في العسكر: أن انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة، ظنوا أنهم المرادون؛ لما في قلوبهم من الرعب [3]، كما قال الشاعر وهو الأخطل:

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تَكرُّ عَلَيهِم وَرِجَالاً

وقيل: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد؛ وتقديره: يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فطن بهم وعلم بنفاقهم؛ لأن للريبة خوفا.

ثم استأنف الله خطاب نبيه ﷺ قال: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾، وهذا معنى قول الضحاك [4]، وقيل:

---

(١) صحيح: مسلم (٢٧٧٢/ ١) في صفات المنافقين وأحكامهم.

(٢) قراءة سبعية متواترة كما في الإقناع ٢/ ٧٨٧.

(٣) ذكره البغوي (٨/ ١٣٠) في تفسيره بدون عزو.

(٤) النكت والعيون (٤/ ٢٧٦) للماوردي.

يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم، وأن النبي ﷺ قد أمر فيها بقتلهم؛ فهم أبدا وجلون من أن ينزل الله فيهم أمرا يبيح به دماءهم، ويهتك به أستارهم، وفي هذا المعنى قول الشاعر:

فَلَو أَنَّهَا عُصْفُورَةٌ لَحسِبْتُهَا مُسَوَّمَةً تَدْعُو عَبيدًا وَأَزْنَما

بطن من بني، يربوع، ثم وصفهم الله بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ حكاه عبدالرحمن بن أبي حاتم، وفي قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ وجهان: أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم، الثاني: فاحذر مما يلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك.

قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: لعنهم الله ،قاله ابن عباس وأبو مالك، وهي كلمة ذم وتوبيخ، وقد تقول العرب: قاتله الله ما أشعره! يضعونه موضع التعجب، وقيل: معنى ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أحلهم محل من قاتله عدو قاهر؛ لأن الله تعالى قاهر لكل معاند، حكاه ابن عيسى، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يكذبون؛ قاله ابن عباس [١]، قتادة: معناه يعدلون عن الحق [٢]. الحسن: معناه يصرفون عن الرشد [٣]، وقيل: معناه كيف تضل عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل؛ وهو من الإفك وهو الصرف، و﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى كيف؛ وقد تقدم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتضحتم بالنفاق، فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم، فلووا رؤوسهم؛ أي: حركوها استهزاءً وإباءً؛ قاله ابن عباس [٤]، وعنه: أنه كان لعبد الله بن أبي موقف في كل سبب يحض على طاعة الله وطاعة رسوله؛ فقيل له: وما ينفعك ذلك ورسول الله ﷺ غضبان: فأته يستغفر لك؛ فأبى وقال: لا أذهب إليه، وسبب نزول هذه الآيات أن النبي ﷺ غزا بني المصطلق على ماء يقال له: «المريسيع» من ناحية «قديد» إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال له: «جهجاه» مع حليف لعبد الله بن أبي يقال له: «سنان» على ماء «بالمشلل»؛ فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سنان بالأنصار؛ فلطم جهجاه سنانا، فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوها ! والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز - يعني أبيا - الأذل ـ يعني محمدا ﷺ ـ ثم قال لقومه: كفوا طعامكم عن هذا الرجل،ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا ويتركوه، فقال زيد بن أرقم - وهو من رهط عبد الله: أنت والله الذليل المنتقص في قومك؛ ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبدا، فقال عبد الله: اسكت إنما كنت ألعب، فأخبر زيد النبي ﷺ بقوله؛ فأقسم بالله ما فعل ولا قال؛ فعذره النبي ﷺ، قال زيد: فوجدت في نفسي ولامني الناس؛ فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله، فقيل لعبد الله: قد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب

(١ ـ ٤) ذكرها الماوردي (٤/ ٢٧٦) في النكت والعيون .

إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك؛ فألوى برأسه، فنزلت الآيات ، خرجه البخاري ومسلم والترمذي بمعناه، وقد تقدم أول السورة (١) ، وقيل﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يستتبكم من النفاق؛ لأن التوبة استغفار.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان، وقرأ نافع: « لَوَوْا » التخفيف، وشدد الباقون؛ واختاره أبو عبيد وقال: هو فعل لجماعة. النحاس: وغلط في هذا؛ لأنه نزل في عبد الله بن أُبي لما قيل له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ حرك رأسه استهزاءً، فإن قيل: كيف أخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل له: العرب تفعل هذا إذا كنت عن الإنسان، أنشد سيبويه لحسان:

ظَنَنْتُم بِأَنْ يَخْفَى الَّذِي قَدْ صَنَعْتُمْ وَفِينَا رَسُولٌ عِنْدَهُ الوَحْيُ واضِعُهُ

وإنما خاطب حسان ابن الأبيرق في شيء سرقه بمكة، وقصته مشهورة، وقد يجوز أن يخبر عنه وعمن فعل فعله، وقيل: قال ابن أبي لما لوى رأسه: أمرتموني أن أومن فقد آمنت، وأن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت؛ فما بقي إلا أن أسجد لمحمد.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعني كل ذلك سواء، لا ينفع استغفارك شيئا؛ لأن الله لا يغفر لهم، نظيره: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، وقد تقدم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: من سبق في علم الله أنه يموت فاسقا.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ذكرنا سبب النزول فيما تقدم، وابن أبي قال: لا تنفقوا علي من عند محمد حتى ينفضوا؛ حتى يتفرقوا عنه، فأعلمهم الله سبحانه أن خزائن السموات والأرض له، ينفق كيف يشاء، قال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وقال الجنيد: خزائن السموات الغيوب، وخزائن الأرض القلوب؛ فهو علام الغيوب ومقلب القلوب، وكان الشبلي يقول: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فأين تذهبون ؟ ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ أنه إذا أراد أمرا يسره.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

القائل ابنُ أُبي كما تقدم، وقيل: إنه لما قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ ورجع إلى المدينة لم

(١) صحيح : البخاري ومسلم ، وقد سبق في أول السورة .

يلبث إلا أياما يسيرة حتى مات؛ فـاستغفر له رسول الله ﷺ، وألبسه قميصه؛ فنزلت هذه الآية ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وقد مضى بيانه هذا كـله في سورة التوبة مستوفى، وروي أن عبـدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول قال لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله ﷺ هو الأعز وأنا الأذل[1]؛ فقاله، توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع؛ فبين الله أن العزة والمنعة والقوة لله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾

حذر المؤمنين أخـلاق المنافقين؛ أي: لا تشتـغلوا بأموالكم كمـا فعل المنافقـون إذ قالوا - للشُّح بأموالهم: لا تـنفقوا على من عنـد رسول الله، ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عن الحج والزكـاة، وقيل: عن قراءة الـقرآن، وقـيل: عن إدامة الذكـر، وقيل: عن الصلوات الخـمس[2]؛ قالـه الضحـاك، وقال الحسن: جـمع الفرائض؛ كأنه قال عن طـاعة الله، وقيل: هو خطاب للمنافـقين؛ أي: آمنتم بالقول فـآمنوا بالقلب، ﴿وَمَن يَفْـعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: من يشـتـغل بالمال والـولد عن طاعـة ربه ﴿فَـأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يدل على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلا، وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ سأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحا، وروى الترمذي عن الضـحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربـه أو تجب عليه فيـه زكاة فلم يفعل، سـأل الرجعة عند الموت، فـقال رجل: يا بن عباس، اتق الله، إنما سأل الرجعة الكفـار، فقال: سأتلو عليك بذلك قرانا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعدا، قال: فما

---

(١) ضعيف: الحـميدى (٢/ ٥٢٠) في مسنده مرسـلاً، وذكره الهيثمي (٩/ ٣١٨) في المجـمع عن أسامة بن زيد - رضي الله عنه وعزاه للطبراني وأعله بـ (محمد بن الحـسن بن زبالة) وقال: وهو ضعيف، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ١٠٦) من طريق الحميدى.

(٢) ضعيف: الطبري (٢٨/ ١٢٤) في تفسيره.

يوجب الحج؟ قال: الزاد والراحلة [١].

قلت: ذكره الحليمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «منهاج الدين» مرفوعا فقال: وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مال يبلغه الحج...» الحديث؛ فذكره، وقد تقدم في «آل عمران» لفظه[٢].

الثالثة: قال ابن العربي [٣]: أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصة دون النفل؛ فأما تفسيره بالزكاة فصحيح كله عموما وتقديرا بالمائتين، وأما القول في الحج ففيه إشكال؛ لأنا إن قلنا: إن الحج على التراخي ففي المعصية في الموت قبل الحج خلاف بين العلماء؛ فلا تخرج الآية عليه، وإن قلنا: إن الحج على الفور فالآية في العموم صحيح؛ لأن من وجب عليه الحج فلم يؤده؛ لقي من الله ما يود أنه رجع ليأتي بما ترك من العبادات، وأما تقدير الأمر بالزاد والراحلة، ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء، وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل؛ لأجل أن الرجعة والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها، وإنما يدخل في المتفق عليه، والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن؛ لأجل أن ما عدا ذلك لا يتطرق إليه تحقيق الوعيد.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلا؛ فيكون استفهاما، وقيل: ﴿لا﴾ صلة؛ فيكون الكلام بمعنى التمني، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ نصب على جواب التمني بالفاء، «وأَكُونَ» عطف على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وهي قراءة أبي عمرو وابن محيصن ومجاهد، وقرأ الباقون: ﴿وَأَكُن﴾[٤] بالجزم عطفا على موضع الفاء؛ لأن قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لو لم تكن الفاء لكان مجزوما؛ أي: أصدق، ومثله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فيمن جزم، قال ابن عباس: هذه الآية أشد على أهل التوحيد؛ لأنه لا يتمنى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة.

قلت: إلا الشهيد، فإنه يتمنى الرجوع حتى يقتل، لما يرى من الكرامة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، وقراءة العامة بالتاء على الخطاب، وقرأ أبو بكر عن عاصم والسلمي[٥] بالياء؛ على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة.

---

(١) ضعيف: منقطع بين ابن عباس والضحاك، وقد ذكره الطبري (٢٨/ ١٢٤) في تفسيره، وفيه جهالة المحدث عن الضحاك، وفي بعض رواياته أبو جناب وهو ضعيف، وبه أعلّه الألباني (٣٣١٦) في سنن الترمذي (ص ٧٥٠) ط ـ مكتبة المعارف ـ الرياض.

(٢) عند الآية (٩٧).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٨١٣) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٨١).

(٥) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٨١).